

**الفرقان**  
**في تفسير القرآن**  
**بالقرآن والسُّنة**



# الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

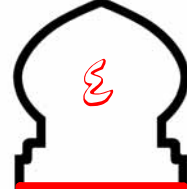
الجزء السابع

تتمة سورة النساء

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





تتمة

سُورَةُ النَّسَاءِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّن ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نُصَلِّيَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ

فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ :

تزكية النفس حين تعنيها عقيدياً أو عملياً فهي محبورة مشكورة وإن كان

الله هو الذي يوفق المتزكين للتزكية ف ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) و ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ (٢) ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (٣) .

وحين تعنيها فاضية عن واقع التزكية فمحظورة كما في آيتنا و ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٤) ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ (٥) تزكية في الأولى توفيقاً لها وتعريفاً بها، وأخرى في الأخرى غفراً للذنوب وقبولاً للشفاعة أمأهيه من تزكيات أخروية، فقد ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦) كهؤلاء المفترين على الله الكذب، وقد يزكي كالصالحين من عباده تطهيراً لهم عما اعترضتهم من اللمم أو سيئات كما في آيات .

فمن زكى نفسه فزكاها الله توفيقاً لها، ثم زكاها إنباء أنه مزكى فمحبور مشكور .

ومن لم يزك نفسه أم لم يعنه الله في تزكيته نفسه - فقلبه وعمله فارغان عن الزكاة - ثم ادعاها لنفسه ومن نفسه فمحظور .

ومن زكى نفسه بتوفيق الله ولما يتزك كما يرام أم تزكى ثم زكى نفسه كأنه هو الذي زكاها فهو كاذب في دعواه رغم زكاته ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ .

فليس الله ليظلم من لم يزكه واقعياً أم إنباءً، ولا من زكاه دون ما يرام ثم لم ينبئ إذ ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ المزكون وسواهم واقعاً وادعاءً ﴿ فَبَيِّنًا ﴾ حيث التزكية الربانية سلبياً وإيجابياً لا يعتريها أي ظلم، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف .

- 
- (١) سورة فاطر، الآية: ١٨ .  
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٤ .  
(٣) سورة الليل، الآية: ١٨ .  
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٢ .  
(٥) سورة النور، الآية: ٢١ .  
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٤ .



والتزكية في قول فصل محظورة قولياً فارغاً عن الواقع، أو عملياً حين تُرائي الناس فيما عمله من الراجحات<sup>(١)</sup> وهكذا «يخشى الرسول ﷺ على أمته أن تزكي أنفسها»<sup>(٢)</sup> ف «لا يزكى على الله أحد»<sup>(٣)</sup> إلا من زكاه الله قدر ما زكاه.

وأما التزكية الحقيقية المصدّقة من الله فقد تجب أمام الناكرين لحق واجب التصديق كالرسالة والإمامة وما دونهما من مقامات روحية واجبة الاتباع على من دونهم وكما زكى يوسف نفسه<sup>(٤)</sup> وكذلك سائر المقربين كأفضلهم خاتم النبيين ﷺ<sup>(٥)</sup>.

(١) في معاني الأخبار للصدوق بإسناده إلى جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [التجم: ٣٢]: قول الناس صلّيت البارحة وضمّنت أمس ونحو هذا ثم قال: إن قوماً كانوا يُصبحون فيقولون: صلّينا البارحة وضمّنا أمس فقال علي ﷺ: لكنني أنام الليل والنهار ولم أجد بينهما شيئاً. وفي الاحتجاج للطبرسي عن علي ﷺ ولولا ما نهى الله عن تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تسمعها آذان السامعين.

(٢) حم ٤: ١٧١.

(٣) في أدب ٥٤.

(٤) في تفسير العياشي قال أبو سفيان لأبي عبد الله ﷺ: ما يجوز أن يزكي المرء نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه أما سمعت قول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥] وقول العبد الصالح: ﴿وَأَنَا لَكَ نَاجِعٌ آمِنٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] وحين يقول المنافقون للرسول ﷺ: اعدل في القسمة يقول: والله إنني لأمين في السماء أمين في الأرض.

(٥) الاحتجاج للطبرسي عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: أتى يهودي إلى رسول الله ﷺ فقام بين يديه يحدّ النظر إليه فقال: يا يهودي ما حاجتك؟ فقال: أنت أفضل أم موسى بن عمران النبي الذي كان كلمه الله ﷻ وأُنزل عليه التوراة والعصا وقلق له البحر وأظله بالغمام؟ فقال له النبي ﷺ: إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه ولكنني أقول إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أنه قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد ﷺ لما غفرت لي فغفر الله له وإن نوحاً لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد ﷺ لما غفرت لي فغفر الله له وإن إبراهيم ﷺ لما ألقى في النار قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد ﷺ لما أنجيتني منها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وإن =

وإذا كانت التزكية الصادقة محظورة إلا عند الضرورة - وكما يزكي الله عبده - فكيف تكون حال التزكية الكاذبة أو المبالغة أو المرائية؟.

ذلك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> تزكيتته، توفيقاً لذكاته كما يسعى لها وتصديقاً لها بوحى منه تعالى وكما زكى أوليائه المقربين السابقين ومن نحى منحاهم كلاً على حدّه وصالحه .

ولقد نزلت هذه الآية تنديدة شديدة بهؤلاء الذين يزكون أنفسهم من هود أو نصارى وأضرابهم، فقد حصروا الجنة في أنفسهم لأنهم أبناء الله وأوداءه! وسائر الناس كأنهم أغارب عن الله وأعدائه، متجاهلين كافة القيم والموازن لزكاة الأنفس إلا ادعاءات جوفاء عنصريات التصور، وكأن الله منعزل إلى بعض العناصر من خلقه دون آخرين!<sup>(٢)</sup> .

وهم أولاد الأنكاد لم يكونوا يزكون أنفسهم من عند أنفسهم فقط، بل وكانوا يفترون تزكيتهم على الله أنه هو الذي زكاهم وفضلهم على من سواهم:

﴿نَنْظُرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾<sup>(٣)</sup> :

وترى ماذا تعني افتراء الكذب على الله وكل افتراء هو في نفسه كذب؟

= موسى لما ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفته قال: اللّهم إني أسألك بحق محمّد وآل محمّد لما آمنتني قال الله ﷻ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] يا يهودي إن موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوتي ما نفعه إيمانه شيئاً ولا نفعته النبوة، يا يهودي ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى ابن مريم لنصرته فيقدّمه ويصلّي خلفه .  
أقول: راجع الفرقان ٢٧ : ٤٤٧ - ٤٥٠ .

(١) سورة النور، الآية: ٢١ .

(٢) ومن تزكياتهم لأنفسهم ما رواه في الدر المنثور ٢ : ١٧٠ عن ابن عباس قال : إن اليهود قالوا : إن أبناءنا قد توفوا وهم لنا قربة عند الله وسيشفعون ويزكوننا فقال الله لمحمد ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرَكِّبُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩] الآية وفيه عنه قال : كانت اليهود يقدّمون صبيانهم يصلّون بهم ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب وكذبوا قال الله : إني لا أظهر ذا ذنب بأخر لا ذنب له ثم أنزل هذه الآية .